الباب الثانى

العناصر الاقتصادية فى الحضارة(*)

« الهمجى » هو أيضاً متمدن بمعنى هام من معانى المدنية ، لأنه يُغنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه — وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية ، التى هذبتها أثناء جهادها فى سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة ، ومن المستحيل فى هذا الصدد أن نلتزم حدود العلم ، لأننا حين نطلق على غيرنا من الناس اسم « الهمج » أو « المتوحشين » فقد لا نعبر بمثل هذه الألفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة ، بل نعبر بها عن حبنا العارم لأنفسنا لا أكثر ؛ وعن انقباض نفوسنا وانكماشها إذا ما ألقينا أنفسنا إزاء ضروب من السلوك تختلف عما ألِفناه ؛ فلا شك أننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب الساذجة التى تستطيع أن نعلّمنا كثيراً جداً من الجود وحسن الخلق ؛ فلو أننا أحصينا أسس المدنيّة ومقوماتها لوجدنا أن الأمم العُريانة قد أنشأتها أو أدركتها جميعاً إلا شيئاً واحداً ، ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الأسس والمقومات لو استثنينا فن الكتابة ، ومن يدرى فلعلهم كذلك كانوا يوماً متحضرين ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة لما لمسوه فيها من شقاء للنفس ؛ وعلى ذلك فينبغى أن نكون على حذر حين

(*) على الرغم من الاتجاه الحديث الذى يخالف رأينا مخالفة شديدة(١) فسنستخدم كلمة « مدنية » أو « حضارة » فى هذا الكتاب لتدل على النظام الاجتماعى والتشريع الخلقى والنشاط الثقافى ؛ وسنستخدم كلمة « ثقافة » لتدل إما على ما يمارسه الناس فعلا من ألوان السلوك وأنواع الفنون وإما على مجموع ما لدى الشعب من أنظمة اجتماعية وعادات وفنون ، وسيدل السياق على أى المعنيين هو المقصود ؛ فإذا ما كانت الإشارة فى الحديث إلى المجتمعات البدائية أو جماعات ما قبل التاريخ فإن المعنى لكلمة « ثقافة » هو المقصود .

تستعمل ألفاظا مثل « همجى » و « متوحش » فى إشارتنا إلى « أسلافنا الذين يعاصروننا اليوم » ؛ ولقد آثرنا أن نستعمل كلمة « بدائى » لندل على كل القبائل التى لا تتخذ الحيطة ، أو لا تكاد تتخذها ، بحيث تدّخر القوت للأيام العجاف ، والتى لا تستخدم الكتابة أو لا تكاد تستخدمها ؛ وفى مقابل ذلك ، سنطلق لفظ التمدن على الأقوام التى فى وسعها أن تكتب ، وأن تدّخر فى أيام يسرها لأيام عسرها .

beikan.com

الفصل الأول

من الصيد إلى الحرث

ما للشعوب البدائية من قصر النظر — بداية الحيطة — الصيد والسمّاكة — الرعى — استئناس الحيوان — الزراعة — القوت — الطهى — أكل اللحوم البشرية

« إن نظام الوجبات الثلاث فى كل يوم نظام اجتماعى غاية فى الرقى ، أما الأقوام الهمجية فهى إما أن تتخم نفسها دفعة واحدة أو تمسك عن الطعام »(٢) وإنك لترى أكثر القبائل توحشاً بين الهنود الأمريكيين يحكمون على من يدخر طعاماً لغده بضعف المراس وانعدام الذوق(٣) ، وكذلك ترى أهل استراليا الأصليين لايستطيعون العمل كائنا ما كان ما دام جزاء العمل لايجيئهم فور أدائه ؛ وكل فرد من قبائل « الهوتنتوت » Hettentot هو بمثابة السيد الذى يعيش عيش الفراغ ، والحياة عند قبيلة « البوشمن » Bushmen فى أفريقيا « إما وليمة وإما مجاعة »(٤). وإن فى قصر النظر هذا لحكمة صامتة ، كما هى الحال فى كثير من أساليب الحياة عند « الهمج » ، ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر فى غده فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادى الهموم ، وحلّتْ به صُفْرة الغمّ ، وهاهنا يشتد فيه الجشع ، ونبدأ الملكية ، ويزول عنه البشْر المتهلل الذى يعرفه الإنسان الأول « الخلىّ من كل تفكير » ؛ إن الزنجى الأمريكى يمثل اليوم هذه المرحلة من مراحل الانتقال ، فقد سأل « پيري » أحد أدلاّئه من الإسكيمو قائلا « فيم تفكر ؟ » فكان جوابه : « ليس لدىّ ما يدعو إلى التفكير لأن لدىّ مقداراً كافيا من اللحم » فكون الإنسان لا يفكر إلا إذا اضطر إلى ذلك ، قد يكون جُمّاع الحكمة ، وقد يكون لهذا الرأى سند قوىّ يدعمه .

ومع ذلك فتلك الحياة التى خلت من الهموم ، كانت لها صعابها ؛ والأحياء

التى استطاعت أن تجتاز تلك المرحلة فى تطورها ، استفادت بذلك ميزة كبرى تساعدها فى تنازع البقاء ؛ فالكلب الذى اختزن تحت الثرى عظمة فاضت عن شهيته ، وإنها لشهية الكلاب ، والسنجاب الذى ادّخر البندق لوجبة أخرى فى يوم مقبل ، والنحل الذى ملأ خليته بالعسل ، والنمل الذى خزن زاده أكداساً اتقاء يوم مطير — هذه جميعاً كانت أول منشئ للمدنية ، فقد كانت هى وأضرابها من المخلوقات الراقية أول من علّم أجدادنا فن ادخار ما نستغنى عنه اليوم إلى الغد . أو اتخاذ الأهبة للشتاء فى أيام الصيف الخصيبة بخيراتها .

فيالها من مهارة تلك التى استخرج بها أولئك الأجداد من البر والبحر طعاما كان بمثابة الأساس لمجتمعاتهم الساذجة ! لقد كانوا ينتزعون بأيديهم المجردة انتزاعا ما يستطيعون أكله مما يبديه سطح الأرض من أشياء ، وكنت تراهم يقلدون أو يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه ، ويصنعون لأنفسهم آلات من العاج والعظم والصخر ، وينسجون الشِّباك والمصائد والفخاخ من خيوط الحلفاء والليف ، ويصطنعون من الوسائل عدداً لا يحصى لاصطياد فريستهم من يابس أو ماء ؛ لقد كان لأهل پولينزيا شباكٌ طولها ألف ذراع لا يستطيع استخدامها إلا مائة رجل مجتمعين ، وبمثل هذا تطورت وسائل ادخار القوت جنبا إلى جنب مع النظم السياسية ، وكان اتحاد الناس فى تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة ، انظر إلى السَّمَّاك من قبيلة « ثِلِنْجِتْ » Thlingit إذ كان يضع على رأسه غطاء يشبه رأس عجل البحر ، ثم يختفى نفسه بين الصخور ويصرخ بمثل صوت ذلك الضرب من الحيتانُ ، فتأتيه عجول البحر ، فيطعنها بسنان رمحه ، لا يجد فى ذلك ما يؤنبه عليه ضميره ، لأنه يتم على أوضاع يرضاها القتال فى صورته البدائية ، وكان من عادة كثير من القبائل أن يُلقى سمّاكوها مادة مخدرة فى مجرى الماء ليهون عليهم استجلاب السمك بعد تخديره ؛ فأهل تاهيتى — مثلا — كانوا يلقون فى الماء سائلا مسكرا يصنعونه من صنف معين من البندق أو ضرب معروف

لديهم من النبات ، فتسكر الأسماك وتطفو على السطح مخمورة لا تحذر الخطر ، فيمسك منها السَّمَّاك ما أراد ؛ والاستراليون الوطنيون يسبحون تحت سطح الماء ، ويتنفسون خلال قصبات من الغاب ، فيتاح لهم أن يجذبوا البطّ السابح من سوقه إلى جوف الماء ، ويظلون ممسكين به هناك فى رفق حتى تسكن فيه حركة الحياة ؛ وأبناء قبيلة « تاراهيومارا » كانوا يمسكون الطير بأن يلقوا لباب البندق على ألياف قوية ويربطوه بتلك الألياف التى يغرسونها إلى نصفها فى التراب ، فيقتات الطير من اللباب ، ثم يقتات « التاراهيوماريون » من الطير (٥) .

إن الصيد عند كثرتنا الغالبة اليوم ضرب من اللهو ، نستمد فيه اللذة — فيما أظن — من بعض الذكريات الغامضة الراسخة فى دمائنا والتى تعيد لنا تلك الأيام القديمة حيث كان الصيد عند الصائد والمصيد كليهما أمراً تتعلق به الحياة أو الموت ، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلا إلى طاب القوت وكفى ، بل كان كذلك حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة ، حرباً لو قَرَنْتَ إليها كل ما عرفه التاريخ المدوَّن من حروب ، ألفيت هذه الحروب بالقياس إليها بمثابة اللغَط اليسير . وما يزال الإنسان فى الغابة يقاتل فى سبيل الحياة ، لأنه على الرغم من أن الحيوان هناك لا يكاد يهاجمه مختاراً إلا إذا اضطره إلى ذلك الجوع الشديد أو الخوف من الوقوع فريسة لا يجد لنفسه مهرباً يلوذ به ، فليس فى الغابة قوت يكفى الجميع ، وأحياناً لا يظفر بطعامه إلا المقاتل أو الذى يستخدم لنفسه حيواناً مقاتلا ، وها هى ذى متاحفنا تعرض أمام أبصارنا بقايا تلك الحرب التى نشبت بين الإنسان وسائر الأنواع الحيوانية ، إذ تعرض أمامنا المُدَى والهراوات والرماح والقسىّ وحبال الصيد والأفخاخ والمصائد والسهام والمقاليع التى استطاع بها الإنسان الأول أن يفرض سيادته على الأرض ، ويمهد السبيل أمام خَلَفٍ لا يعترف بالجميل ، ليحيا حياة آمنة من كل حيوان إلا الإنسان . وحتى فى يومنا هذا ، بعد كل ما نشب من حروب تستبعد العاجز عن الحياة لتبقى على القادر ، انظركم من صنوف

الكائنات الحية ما يزال على وجه الأرض يسعى ! لقد يحدث أحياناً إذا مامشى الإنسان خلال الغابة متريضاً ، أن تأخذه الدهشة العميقة لكثرة ما سمع هنالك من لغات ، ولكثرة ما يرى من أنواع الحشرات والزواحف وآكلة اللحوم والطير . إن الإنسان ليحسُّ عندئذ أنه متطفل قد أقحم نفسه إقحاماً على هذا الشهد بما فيه من زحمة الأحياء ، وأنه مخوف يخشاه الحيوان جميعاً ويمقته الحيوان جميعاً مقتاً لا ينتهى . ومن يدرى فلعل يوماً يُقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف من ذوات الأربع فى دمدمة أصواتها ، وهذه الحشرات التى كأنما هى اليوم تستدرعليها عطف الإنسان، وهذه الجراثيم الضئيلة التى تنوّه بما عساها أن تصنعه ، لعل يوماً يقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف جميعاً تلتهم الإنسان التهاماً بكل ما صنعتْهُ يداه وأنشأتْ ، فتنقذ الكوكب الأرضى من هذا الحيوان ذى الساقين الذى لا يفتأ يجول ناهباً سالباً ، وهذه الأسلحة العجيبة المصطنعة ، وهذه الأقدام التى تجوس فى غير حذر !

لم يكن الصَّيْدُ والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادى ، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التى كتب لها أن تظل باقية فى أعلى صور المجتمع المتحضر . لقد كانا ذات يوم مركز الحياة ، وهما الآن بمثابة أساسَيْها الخبيثين ، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأشدّاء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة ، فكأنما نؤدّى اليوم صَيْدنا بوساطة غيرنا نُنِيبُه عنا ، إذ تعوزنا جرأة القلب التى نقتل بها طرائدنا عَلَناً فى الفضاء المشكوف ؛ لكن ذكريات الصيد القديم ما تزال تعاودنا حينما نغتبط بمطاردتنا للضعيف أو للذى يلوذ منا بالفرار ، بل إنها تعاودنا فى ألعاب أطفالنا — حتى الكلمة التى نطلقها اليوم على اللعب هى نفسها التى تدل على الصيد(*) وإذن فآخر ما نصل إليه فى تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه فإن رأيت فخامة الفن فى الكاتدرائية

(*) لفظة Game بالإنجليزية تعنى الصيد وتعنى اللعب أيضا . (المعرب)

أو مبنى الكابيتول ، وإن شهدت متحفاً للفن أو حفلة موسيقية ، وإن صادفت مكتبة أوجامعة ، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التى تخفى وراءها أشلاء القتال .

ولم يكن الإنسان مبتكراً حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه ، ولو حصر الإنسان جهده فى نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التى يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأوثق اتصالا واطّراداً ، وأعنى بها حياة الرعى ، التى اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن . إننا لا نعرف كيف بدأ استئناس الحيوان ولامتى بدأ — فربما كان ذلك حين أبقى الصائدون على صغار الحيوان القتيل فى حلبة الصيد ، حين لم يروا لهاتيك الصغار حَوْلاً ولاقوّة ، فساقوها إلى مقرّ سكناهم ليتخذها أطفالهم لُعباً يلهون بها[٦] ، ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذى يمسك به على هذا النحو ، ولكن بعد إمهاله فترة من الزمن ؛ وأخذ يستخدمه أداة للنقل لكنه مع ذلك كاد أن يسلكه فى مجتمعه الإنسانى كأنما هو منهم ، فهو زميل ، وهو شريك فى العمل والإقامة ؛ ثم تلا ذلك أن أدرك الإنسان معجزة التناسل بين صنوف حيوانه ، فأخضعها لإشرافه ، استطاع بعدئذ من ذكر وأنثى يمسك بهما أن ينشئ لنفسه قطيعاً كاملا ، كذلك خَفَّ عن النساء حمل الرضاعة فترة طويلة ، بأن استعملن لأطفالهن ابن الحيوان بعد سِنٍّ معيَّنة ، وبهذا قلَّتْ نسبة الوفيات فى الأطفال وظفر الإنسان بمورد جديد مضمون من موارد الطعام ؛ أدى ذلك كله إلى تكاثر الناس وازدادت الحياة ثباتاً واطّراداً ، وأصبحت سيادة هذا الكائن المحْدَث الوجيل ، أعنى الإنسان ، أصبحت سيادته على الأرض أكثر اطمئناناً .

وكانت المرأة أثناء ذلك فى طريقها إلى أكبر كشف اقتصادى بين تلك الكشوف جميعاً ، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تخرجه من طيبات ؛ فبينا

كان الرجل فى صيده كانت هى تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول ؛ ففى استراليا كان العرف القائم هو أنه إذا ما غاب الزوج فى رحلات صيده ، أخذت الزوجة تحفر الأرض بحثاً عن جذور تؤكل ، وتقطف الثمار والبندق من الشجر ، وتجمع العسل والفُطْر والحبّ والغلال التى تنبتها الطبيعة(٧) ؛ ولا تزال بعض القبائل فى استراليا حتى يومنا هذا تحصد الغلال التى تنبت بالطبيعة دون أن تحاول دَرْسَ الحبوب وبذرها ؛ ولبث هنود وادى نهر ساكرامنتو عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبداً(٨) وهكذا لن يتاح لنا إلى آخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب بحيث يتحول من جمعها إلى بَذْرها فى الأرض ، فهذه البدايات هى أسرار التاريخ التى سنظل نضرب حولها بمجرد الإيمان والحَدْس ، لكننا يستحيل أن نعلم عنها علم اليقين ، فيجوز أنه حين أخذ الإنسان فى جمع الحبوب النابتة بطبيعتها ، كانت تسقط منها حبّات وهو فى طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم فنبّهته أخيراً إلى السر العظيم الكامن فى نمو النبات ، فألقى الناسُ من قبيلة « چوانج » البذور فى الأرض وتركوها تشق لنفسها طريقها إلى الفضاء ، وأما أهالى « بورنيو » فكانوا يضعون الحبّ فى حفرات يحفرونها بعصاة مدببة إذ هم سائرون عَبْرَ الحقول(٩) ، فكانت هذه العصاة أو « الحافرة » أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض ، وقد كان الرحّالة فى مدغشقر منذ خمسين عاماً يرون النساء وقد امتشقن هذه العصىّ المدببة ، ووقفن فى صف كأنهن الجنود ، ثم تصدر لهن إشارة البدء فيأخذن فى حفر الأرض بعصيّهن ، وقَلْب التربة ووضْع البذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد ، وبعدئذ يمضين إلى خطٍّ آخر من خطوط الحقل(١٠) ، والمرحلة التى تلت ذلك فى تقدم الفلاحة وأدواتها مرحلة استُعملت فيها الفأس فى الحرث ، وذلك بأن ركّب الإنسان عظمة فى طرف العصاة الحافرة ، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة

لضغطها بالقدم ، فلما وصل « كونْكِيوِسْتَادُورِس » إلى المكسيك وجَدَ الأزاتقة لا يعرفون غير الفأس أداة لحرث الأرض حتى إذا ما استؤنس الحيوان وطُرقت المعادن أمكن استعمال أدوات أثقل ، فكبرت الفأس حتى أصبحت محراثاً يضرب فى الأرض أعمق مما كانت تضرب الفأس ، فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة ، بحيث تغيرت سيرة الإنسان تغيراً كاملا ، فزرع أنواعاً من النبات كانت تستعصى عليه من قبل ، واستنبت أنواعاً أخرى ، وأصلح الأنواع التى كان يزرعها قبل ذلك .

وأخيراً تعلم الإنسان عن الطبيعة فن التحوط للمستقبل ، وفضيلة التبصر فى العواقب(*) كما تعلم فكرة الزمن ؛ فلما لاحظ الإنسان الطيور النقّارة تخزن البندق فى الشجر ولاحظ النحل تخزن العسل فى الخلايا ، أدرك — وربما جاء إدراكه هذا بعد ألوف من سنين قضاها فى همجية لا تعرف للحيطة معنى — أدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل ؛ وكشف عن بعض السبل التى تمكّنه من حفظ اللحم ، بتدخينها وبتمليحها وبتبريدها ؛ وخير من ذلك فى سبيل التقدم ما بناه لنفسه من أهراء للغلال تحفظها من المطر والرطوبة والحشرات واللصوص ، فكان يحتفظ فى تلك الأهراء بطعام يأكله فى أشهر السنة العجاف ؛ وهكذا تبين على مر الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون مورداً للقوت أجود نوعا وأثبت اطّراداً من الصيد ، فلما أن تحقق الإنسان من هذا ، خطا إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التى نقلته من الحيوانية إلى المدنيّة — وتلك الخطوات هى الكلام والزراعة والكتابة .

ولا يجوز لك أن تتصور الإنسان وقد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة ، فكثير من القبائل — مثل الهنود الأمريكيين — جمدوا فى مرحلة

(*) تلاحظ العلاقة اللغوية بين الألفاظ الثلاثة التى معناها على التعاقب « حيطة للمستقبل » و « تدبير » و « تبصر » وهى بالإنجليزية Prudence و Providence و Provision

الانتقال لا يتحولون عنها ، فلبث الصيد مهنة الرجال والحرث مهنة النساء ؛ لا بل لا يكفى أن تقول عن هذا التحول إنه تم بخطواط متدرجة ، إنما ينبغى أن تضيف إلى ذلك أنه لم يكمل حتى تمامه ، ولك أن تقول إن الإنسان بحرثه للأرض إنما أضاف طريقة جديدة لاختزان الطعام إلى جانب الطريقة القديمة ، ثم ظل طوال عصور التاريخ يغلب عليه أن يؤثر لنفسه طعام المرخلة الأولى على طعام المرحلة الثانية ، ويمكننا أن نصوّر لأنفسنا الإنسان الأول إذ هو يُجرى التجارب على ألوف الأصناف التى تخرجها له الأرض من جوفها ، حتى لقد عانى فى سبيل ذلك ما عانى من ضيق ألمَّ بجوفه ، لعله واجد أى صنف من هاتيك المنتجات يمكن أكله بحيث يكون مأمون العواقب ، ثم أخذ يجرى التجارب تلو التجارب فى مزج هذه الصنوف بالفاكهة والثمر وباللحم والسمك اللذين اعتادهما من قبل ؛ لكنه خلال تلك التجارب كلها لم ينفك مشوقا لأكل غنائم الصيد ؛ وإنك لترى الشعوب البدائية محبة للحم فى طعامها إلى حد الافتراس ، حتى وإن كان طعامهم الرئيسى فى الواقع هو الغلال والخُضَر واللبن(١١) فإذا ما صادفهم حيوان ميِّت لم يَطُلْ أمد موته ، فالأرجح أن يهجموا عليه فى نهم فظيع ، وكثيرا ما يستغنون فى ذلك عن عملية الطهى حتى لا يضيعوا من وقتهم شيئاً ، فيأكلوا فريستهم نيئة ، مسرعين فى ذلك ما أسعفتهم أسنانهم القوية فى تمزيقها والتهامها ، وسرعان ما تنظر فإذا الباقى أمامهم كومة عن عظام ؛ وإننـــا نسمع عن قبائل بأسرها تمرح فى طعامها أسبوعا كاملا على حوت يلقيه البحر على الشاطئ(١٢) ؛ وعلى الرغم من معرفة الفويچيين للطهى فإنهم يفضّلون اللحم نيئا ، وإذا أمسكوا بسمكة قتلوها بِعَضِّها خلف خياشيمها ، ثم أكلوها من رأسها إلى ذيلها ، لا يقومون إزاءها بشىء من الإعداد إطلاقا(١٣) : إن الشك فى اطّراد موارد الطعام جعل هذه الشعوب الفطرية تأكل كل ما يصادفها بمعنى الكلمة الحرفى تقريبا ؛ يأكلون السمك وقنافذ البحر والضفادع البحرية والبرية والفئران

كبيرها وصغيرها والعناكب والديدان والعقارب والعُثّة والحشرات والجراد والأساريع والضبّ والثعابين بأنواعها والكلاب والخيل وجذور النبات والقمل واليرقات وبعض الزواحف والطير — ليس بين هذه الأنواع نوع إلا وكان فى مكان ما لوناً من ألوان الطعام اللذيذ المشتهى عند الأقوام البدائية(١٤) ؛ وبين القبائل فريق مَهَرَ فى صيد النمل ، وبينها فريق آخر يجفف الحشرات فى الشمس ويخزنها لتُؤكل فى وليمة ، وقوم آخرون يلتقطون القمل بعضهم من رءوس بعض ويأكلونه مستمتعين بما يأكلون ، وإذا ما تجمع من القمل عدد كبير أقبلوا عليه يلتهمونه وهم يصيحون صيحات الفرح باعتباره عدواً للإنسان(١٥) ؛ إن قائمة الطعام عند القبائل الدنيا لا تكاد تختلف فى شىء عنها عند القردة العليا(١٦) وجاء الكشف عن النار فحدد هذا النَّهم الذى لا يفرّق بين طعام وطعام ، وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد ؛ فطهْىُ الطعام أذاب للإنسان مادتى « السليلوز » والنشاء الموجودتين فى آلاف الأصناف من النبات فتجعلانها غير قابلة للهضم إذا ما تُركت فجّة على حالتها ، وأخذ الإنسان يزداد اعتماده على الغلال والخضر ويجعل منها غذاءه الرئيسى ؛ ولو أن الطهى بتليينه لمواد الطعام الصُّلْبة ، قلّل من الحاجة إلى المضغ ، فبدأ فساد الأسنان الذى هو من وصمات المدنية .

ثم أضاف الإنسان إلى صنوف الطعام التى أسلفنا ذكرها صنفاً آخر كان ألذها وأشهاها — وهو زميله الإنسان ، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوماً شائعاً بين الناس جميعاً ، فقد وجدناه فى كل القبائل البدائية تقريباً ، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخاً مثل سكان إيرلندة وإيبريا وجماعة البكْت ، بل بين أهل الدانمارکه فى القرن الحادى عشر(١٧) ؛ كان اللحم البشرى من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز ؛ بل قد كان الأحياء فى الكنغو الأعلى يُباعون ويُشْترون رجالا ونساء وأطفالا ، كانوا يباعون ويُشترون

علنا على اعتبار أنهم من مواد الطعام(١٨) ، وأما فى جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشرى يباع فى دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى اليوم ؛ وكذلك فى بعض جزر سليمان كانوا يسمنون من يقع فى أيديهم من الضحايا البشرية — وخصوصاً النساء — ليولموا بلحومهم الولائم كأنهم الخنازير(١٩) ؛ وكان الفويچيون ينزلون النساء منزلة أعلى من الكلاب لأن « الكلاب كان مذاقها رديئاً » كما كانوا يقولون ؛ ولما مرّ « پيير لوتى » بجزيرة تاهيتى ، أخذ رئيس كهل من روساء البولينزيين يشرح له طعامه فقال : « إن مذاق الرجل الأبيض إذا ما أُحْسِنَ شواؤه كمذاق الموز الناضج » ، أما الفيچيون فلم يعجبهم لحم البيض زاعمين أنه زائد فى ملحه عما ينبغى ، وقوىّ الألياف ، فالبحّار الأوربى إذا ما وقع لهم كاد فى رأيهم ألا يصلح للطعام ، وعندهم أن الرجل من پولينزيا ألذ طعما(٢٠) .

فما أصل هذه العادة ؟ ليس هنالك ما يثبت قطعاً أنها نشأت — كما ظن الناس من قبل — بسبب قلة فى أنواع الطعام الأخرى ، ولو كان ذلك كذلك إذن فقد بقى التلذذ بمذاق اللحم البشرى بعد زوال القحط فى مواد الطعام الأخرى ، لأن العادة قد تكونت وأصبحت مما يستميل الآكل(٢١) وها هى ذى الطبيعة ، أَرْسِلْ فيها البصر تبَرَ الدم البشرىّ طعاماً شهياً لا يُقدم عليه اللاعق فى جزع قط ، حتى النباتيون البدائيون كانوا سرعان ما يعتادونه بشغف عظيم ؛ ولطالما شرب أهل القبائل دم الإنسان ، مع أنهم يكونون فى غير هذا الظرف رقيقى القلوب كرام النفوس — يشربونه تارة باعتباره دواء ، وطوراً باعتباره شعيرة دينية أو وفاء بعهد ، ويشربونه عادة على عقيدة منهم أنه سيضيف إلى الشارب القوة الحيوية التى كانت للمأكول(٢٢) . ولم يكن أحد ليشعر بشىء من الخجل فى إيثاره للّحم البشرى ، والظاهر أن البدائيين لم يكونوا يفرقون فى حكمهم الأخلاقى بين أكل الإنسان وأكل الحيوان ، بل إنه لمدعاة للفخار فى ميلانيزيا أن يدعو

الرئيس أصدقاءه إلى أكلة يُقَدَّمُ فيها إنسان مشوى ، وفى ذلك قال رئيس برازيلى فيلسوف : « ما دمتُ قد قتلتُ عدوّى ، فلا شك أنه من الخير أن آكله بدل أن أتركه فيضيع خسارةً لا يفيد منها أحـــد . . . ليس أسوأ الحالات أن يؤكل الإنسان ، لكن آسوأها أن يموت ، فإذا ما قُتِلتُ فسواء لدىّ أ أكلنى عدو القبيلة أم تركنى ؛ على أننى لا أجد بين صنوف الصيد جميعاً ما هو ألذ مذاقا من طعم الإنسان . والحق أنكم أيها البِيض قد بلغتم الغاية فى حسن المذاق »(٢٣)

ومما لا يب فيه أن هذه العادة قد كان لها حسنات اجتماعية معينة ؛ فقد سبقت إلى الوجود الخطّة التى اقترحها « سْوِفْت » فى شأن الانتفاع بالأطفال الزائدين عن الحاجـــة ، ثم أفسحت أمام الكهول مجالا وهو أن يموتوا موتا فيه نفع للآخرين ؛ أضف إلى ذلك وجهة النظر التى لاترى فى الجنائز إلا إسرافاً لا تدعو إليه ضرورة ؛ ولقد كان من رأى « مونْتينْى » أن تعذيب الإنسان حتى يُسْلِم الروح تحت قناع من الورع والتقوى — كما كانت الحال فى عصره — أفظع وحشية من طهيه وأكله بعد موته ؛ إنه لواجب علينا أن يحترم كل منا أوهام الآخر .

الفصل الثانى

أسس الصناعة

النار — الآلات البدائية — النسج وصناعة الخزف — البناء والنقل — التجارة وشئون المال

لئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام ، وبدأت المدنيّة بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار التى لم يخترعها الإنسان اختراعاً ، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه ، أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية ، ولم يكن لدى الإنسان فى ذلك إلا الذكاء الذى يقلد به الطبيعة ويزيدها كمالا ؛ ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار استخدمها على ألف صورة ، أولها فيما نظن أن اتخذ منها شعلة يقهر بها عدوّه المخيف ، ألا وهو الظلام ، ثم استعملها بعد ذلك للتدفئة ، وبذلك استطاع أن يتحرك مُبْعداً عن مناطقه الاستوائية إلى مناطق أقل منها إرهاقاً للقُوى ، وبهذا الانتقال أخذ شيئاً فشيئاً يعمر الكوكب الأرضىّ فيجعله مسكناً للإنسان ، ثم بعد ذلك أخذ يستعمل النار فى المعادن فيليّنها ويطرقها ويمزجها فى هيئة أشد صلابة وأكثر مرونة مما وجدها عليه أول ما وجدها ؛ لقد بلغت النار فى أعين البدائيين من الغرابة ومن النفع حداً جعلها لديه إحدى المعجزات التى تستحق أن تُتّخذ إلـهاً وتُعبد ، ولذلك أقام لها ما لا يحصى عدده من الحفلات التعبُّدية ، وجعل منها مركزاً لحياته وبيته ؛ وكان كلما انتقل من مكان إلى مكان ، حملها معه معنيًّا بها ، لا يرضى لها قط أن تخمد ؛ بل إن الرومان أنفسهم أعدموا العذراء الطاهرة عقاباً لها على إهمالها الذى كان من شأنه أن تنطفئ النار المقدسة .

على أن الإنسان ، إذ هو لم يزل فى مراحل الصيد الوعى والزراعة ، ما انفك

مخترعاً ، فكان الإنسان البدائى يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية فى وجهه من مسائل ؛ فقد كان الإنسان بادئ ذى بدء راضياً — فى ظاهر الأمر — بما تقدمه له الطبيعة — كان راضياً بثمار الأرض طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه لباساً ، وبالكهوف فى سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك ، فيما نظن (فمعظم التاريخ ظنٌّ وبقيّته من إملاء الهوى) أنْ أخذ فى تقليد آلات الحيوان وصناعته ؛ فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمحار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبنى لنفسها السدود والطيور تهيئ الأعشاش والعرائش ، والشمبانزى تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ ؛ فحسدها على ما لها من قوة فى مخالبها وأسنانها وأنيابها وقرونها ، وعلى صلابة جلودها ، فأخذ من فوره يُعدّ لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان منها ، بل تفوقها ، فالإنسان — كما قال فرانكلن — حيوان صانع للآلات[٢٤] لكن هذه الميزة أيضاً — كسائر ما نُضْفيه على الإنسان من ميزات نُزهى بها ونفخر — إن هى إلا تفوُّق على الحيوان فى الدرجة وحدها لا فى النوع .

وكان النبات الذى يحيط بالإنسان البدائى مصدراً لكثير من الآلات ، فمن الخيزران صنع الإنسان السهام والمدى والإبرَ والقوارير ؛ ومن فروع الشجر صنع الملاقط والمناسك ؛ ومن لحاء الشجر وأليافه صنع الحبال والثياب فى صنوف شتى ؛ وفوق هذا كله صنع الإنسان لنفسه العصا ؛ ألا ما أبسطها اختراعاً لكنها من كثرة النفع بحيث لبث الإنسان ينظر إليها رمزاً للقوة والسلطان ، من العصا السحرية عند عرائس الجن وعكازة الراعى إلى عصا موسى أو هارون ، والعصا العاجية التى كان يمسك بها القنصل أيام دولة الرومان ، والقضيب الذى يلوّح به المنبئون بالغيب ثم الصولجان يمسك به القاضى أو الملك ؛ ولقد انقلبت العصا فى الزراعة فأساً ، أما فى الحروب فقد أصبحت حربة أو سهماً أو رمحاً أو سيفاً

أو سُنْكيًّا(٢٥) . وكذلك استغلّ الإنسان المعادن وصاغ الصخر أسلحة وأدوات هي اليوم تحفة المعارض ، فصنع منها المطرقة والسندان والوعاء يغلى فيه الماء ، والسكين ، ورأس الرمح ، والمنشار ، والصفائح ، والخوابير ، والروافع ، والفئوس ، والمثاقب ؛ وكذلك من دنيا الحيوان صنع أدواته ، فصنع المغارف ، والملاعق ، والأوانى والأطباق ، والأقداح ، والمواسى ، والمشابك ؛ صنع هذا كله من قواقع الشاطئ ، كما صنع غير ذلك من الأدوات الغليظة والدقيقة من قرون الحيوان وأنيابه وأسنانه وعظامه وشعره وجلده ؛ وكان لمعظم هذه الأدوات المصنوعة مقابض من خشب شُدَّت إليها بطرق تدل على مهارة صانعيها ، فقد كانوا يربطون هاتيك المقابض بضفائر من الألياف أو الحبال أو عصب الحيوان ، وأحياناً كانوا يلصقونها بغراء مصنوع من مزيج عجيب من الدماء ؛ إن مهارة الإنسان البدائى توازى على الأرجح — بل ربما تفوق — مهارة الإنسان المتوسط فى عصرنا الحديث ، فلئن كنا نختلف عن هؤلاء الأولين ، فما ذاك إلا بفضل ما تجمّع لدينا من معارف وأدوات ومواد ، ولا يُعزى الفرق بيننا وبينهم إلى تفوّق فكرىّ امتازت به طبائعنا من دونهم ؛ الحق أن أبناء الطبيعة أولئك يغتبطون أيما غبطة كلما سيطروا على موقفٍ اعترضهم ، سيطرة أعملوا فيها أذهانهم المبدعة ؛ فبين وسائل اللهو المحبَّبة إلى الاسكيمو أن يذهبوا إلى أماكن وعرة مهجورة ، ثم يتسابقون هناك فى ابتكار الوسائل التى يواجهون بها ضرورات الحياة التى ليس لديهم ما يستعينون عليها به من أدوات(٢٦) .

وتبدّت مهارة الإنسان البدائى فى فن النسيج على صورة جديرة منه بالفخر ، وبها هنا أيضاً اهتدى الإنسان بالحيوان فى طريق السير ، فنسيج العنكبوت وعش الطائر ، وتشابك الألياف والأوراق وتقاطعها فى النسيج الطبيعى الذى تراه فى الغابة ، كل ذلك أقام للإنسان نموذجاً بارزاً يحتذيه ، وإنه لنموذج بلغ من الوضوح حداً يجعلنا نرجح أن قد كان النسج من أول الفنون التى اصطنعها الجنس البشرى ،

فنسج اللحاء والأوراق والألياف والحشائش ليصنع منها ثياباً وبُسُطا وأغطية لجدرانه ، ولقد أتقن صنعها فى بعض المواضع بحيث لا تجد من صناعة اليوم ما يفوقها بكل ما للصناعة اليوم من مُعينات وآلات ؛ فنساء « ألوشيا » قد ينفقن عاماً كاملا فى نسج ثوب واحد ؛ والهنود فى أمريكا الشمالية يصنعون البطاطين والأردية فيزخرفونها بالهُدّاب ويوشّونها بالشعر وخيوط القصب المصبوغة بناصع الألوان التى استقطروها من التوت ، حتى لقد قال عنها « الأب ثيودى » Father Théodut : « إنها من النصوع بحيث لا أظن أن ألواننا تدنو منها »(٢٧) ؛ فقد بدأ الفن حيث انتهت الطبيعة ؛ فهذه هى عظام الطيور والأسماك ، وهذه هى قصبات الخيزران الدقيقة ، قد تناولها الإنسان بالصقل حتى جعل منها إبراً ، ثم هذه أعصاب الحيوان قد شُدّت خيوطاً بلغت من الرقة حداً تنفذ به من سَمّ الخياط مهما بلغ هذا من دقته وضيقه ؛ وكذلك جعل الإنسان من اللحاء فراشاً وقماشاً ، وجفف جلود الحيوان ليصنع منها رداء وحذاء ، وضفر الألياف نسيجاً قوياً ، ونسج الغصون اللينة والألياف الملوّنة سلالا أجمل مما ينتجه العصر الحديث فى هذا الباب(٢٨)

وصناعة الخزف قريبة الشبه بصناعة السلال ، بل ربما كانت مأخوذة عنها ، فهم يصنعون العجينة على إطار من أغصان الصفصاف المجدولة حتى لا تحترق هذه الأغصان ، وبذلك يتصلّب الطين غلافاً لا يقبل الاشتعال ، ويحتفظ بهيئته بعد أن يزال عنه إطار الصفصاف(٢٩) ، ربما كان هذا أول مرحلة من مراحل طريق أخذ يتطور حتى بلغ القمة فى الصناعة الخزفية المثلى المعروفة باسم « البورسلان » أو ربما جففت أشعة الشمس قطعاً من الطين ألقيت فيها ؛ فكان ذلك منها للإنسان إلى فن الخزف ؛ فما عليه بعد ذلك إلا أن يخطو خطوة واحدة ، وهى أن يستبدل بالشمس ناراً ، ثم يصنع لنفسه من تربة الأرض آنية مختلفة الصور يستخدمها فى شتى جوانب العيش — يستخدمها للطهى ، وللخزن ،

وللنقل ، وأخيراً يستخدمها للأبهة والزينة ، والزخارف التى كان يطبعها بأظفاره أو بآلاته على الطينة وهى بعدُ عجينة طرية ، كانت إحدى صور الفن فى أول نشأته ، وربما كانت كذلك فى إحدى مصادر الكتابة الأولى .

ومن الطين الذى جففته الشمس صنعت القبائل البدائية الآجرَّ وأقامت الدُّور ، ثم سكنت فيما يصح أن نسميه بيوتا من خزف ، لكن هذه البيوت الخزفية لم تكن أول صورة من صور البناء ، التى أخذت تتطور فى رقيها من الكوخ الطينىّ الذى سكنه « الهمجى » إلى أن بلغت أحجار البناء الراقية فى مبانى نينوى وبابل ؛ ولقد تسلسل هذا التطور حلقة بعد حلقة يتماسك بعضها ببعض بحيث تؤدى الواحدة إلى التى تليها ؛ فبعض الشعوب البدائية — مثل الڤيداويين فى جزيرة سيلان — لم يكن لهم دُور للسكنى ، واكتفوا بالأرض وطاء ، والسماء غطاء ؛ وبعضها — مثل أهل تسمانيا — أوَوْا إلى جذوع الشجر الخاوية ؛ وبعضها — مثل سكان جنوبى ويلز الجديدة — اتخذوا الكهوف مسكناً ؛ وبعضها — مثل البوشمن — كانوا يتقون الريح بحواجز يقيمونها هنا وهناك من أغصان الشجر ، وأحيانا نادرة كانوا يغرزون فى الأرض أحجاراً ثم يغطونها بالطحلب وفروع الشجر ؛ ومن هذه الحواجز التى أقيمت لاتقاء الريح ، خرجت الأكواخ حين أضيفت إلى الحواجز جوانب عند أطرافها ؛ وإنك لترى الكوخ فى كل مراحل تطوره ماثلا بين سكان استراليا الأصليين ، تراه من بدايته حيث كان يقام صغيراً من الغصون والأعشاب والتراب ، ولا يسع إلا شخصين أو ثلاثة ، إلى الأكواخ الكبيرة التى تؤوى ثلاثين شخصاً أو يزيد .

وأما البدوى ، صائداً كان أو راعياً ، فقد آثر لنفسه خيمة فى مستطاعه حلها معه أينما انتهى به طِرادُه لصَيْده ؛ لكن الطبقات العليا من القبائل الفطرية ، مثل الهنود الأمريكيين ، استخدمت الخشب فى بنائها ؛ وكذلك كانت قبيلة «إراكوا» تبنى من الحطب الذى لا يزال مغطى بقشوره ، أبنيه فسيحة طولها خمسمائة قدم ،

وتؤوى عدداً كبيراً من الأسر ؛ وأخيراً ترى أهل « أوقيانوسيا » يشيدون دُوراً حقيقية من ألواح الخشب التى اتقن قَطْعها وبهذه الدُّور وصل التطور فى المساكن الخشبية أكمل مراتبه(٣٠) .

لم يبق أمام الإنسان البدائى إلا ثلاث خطوات فى طريق التطور لتتم له ضرورات المدنيّة الاقتصادية كلها : آلات النقل ، وعمليات التجارة ، ووسائل التبادل ، إنك إذا أبصرت بالحمّال يحمل المتاع من طيارة حديثة لينزله على الأرض ، فقد رأيت صورة النقل فى أول مراحله وفى آخر مراحله معا ؛ فلا شك أن قد كان الرجل فى بداية الأمر يحمل أثقال نفسه بنفسه ، اللهم إلا إذا تزوج (فتكون الزوجة حاملة أثقاله) بل إن الإنسان إلى يومنا هذا ، فى آسيا الجنوبية والشرقية ، تراة فى الأعم الأغلب عربة وحمارا وكل شىء ؛ ثم اخترع الإنسان الحبال والروافع وبكَرات الجرّ ؛ سيطر على الحيوان واستخدمه ناقلا لأحماله ؛ ثم صنع أول ما شهد التاريخُ من جَرّارات حين جعل ماشيته تجر على الأرض غصونا طويلة وضع عليها متاعه(*) ؛ ثم وضع جذوعا من الشجر تحت الجرارة كأنها عجلات ؛ ثم قطع الجذوع شرائح مستعرضة وابتكر بذلك أعظم اختراع آلى ، وهو العجلة ، لأنه وضع العجلات تحت الجرارة وصنع بذلك عربة ؛ ومن جذوع الشجر كذلك صنع الأطواف بربط الجذوع بعضها ببعض ، كما صنع الزوارق بحفر الجذوع وتفريغ أجوافها ، ولما تم له ذلك أصبحت مجارى الماء أيسر طرق النقل ؛ وأما على اليابس فقد شق لنفسه الطريق بادئ ذى بدء عبر المروج والتلال التى لم يكن فيها طريق ؛ ثم عبّد لنفسه سِكّةً ثم رصف آخر الأمر طريقاً ، ودرس النجوم وأخذ بعدئذ يسير بقوافله عبر الجبال والصحراوات مهتديا إلى طريقه بالنظر إلى السماء ؛ وطفق الإنسان يسبح بزورقه دافعا إياه بالمجداف والشراع حتى عبر البحر فى شجاعة من جزيرة إلى جزيرة ، وأخيراً قطع

(*) الهنود الأمريكيون قد اكتفوا بهذه المرحلة ولم يستخدموا العجلات .

المحيطات لينشر ثقافته المتواضعة من قارة إلى قارة ؛ ففى هذا الصدد أيضا حُلَّتْ المشكلات الرئيسية قبل أن يبدأ التاريخ المدوَّن .

ولما كانت الكفايات البشرية والموارد الطبيعية موزَّعة على الأرض فى غير مساواة ، فقد ترى شعبا من الشعوب قادراً بفضل ما تطور لديه من استعدادات خاصة ، أو بفضل قُرْبه من المواد المطلوبة ، تراه قادراً على إنتاج أشياء معينة لا يكلفه إنتاجها ما يكلف جيرانه ؛ فيمضى فى صنع هذه الأشياء حتى يصنع منها أكثر من حاجته ، وعندئذ يقدِّم فائض إنتاجه لجيرانه فى مقابل ما ينتجونه هم ؛ وهـــذا التبادل هو أصل التجارة ؛ فهنود شِبْشا فى كولومبيا كانوا يصدرون صخور الملح التى تكثر فى بلادهم ، ويستوردون مقابل ذلك الغلال التى يستحيل استنباتها فى أرضهم القاحلة ؛ وبعض القرى التى يسكنها الهنود الأمريكيون كاد أن يتخصص فى صناعة رءوس الرماح ، بينما يتخصص بعض القرى فى غانة الجديدة فى صنع الأوانى الخزفية ؛ كذلك فى أفريقيا ترى من هذه القبائل ما يجعل الحدادة صناعته ، ومنها ما يجعل صناعته الزوارق أو الرماح ؛ ومثل هذا التخصيص فى القبائل أو القرى كثيراً ما أكسبها اسم صناعتها ، (فيطلق عليها الحدَّاد ، أو السَّمَّاك أو الخزَّاف ...) ، ثم انتقلت هذه الأسماء مع الزمن إلى الاسر التى اختصت نفسها بهذه الصناعة أو تلك (١٣٠) ؛ والتجارة بفائض الإنتاج كانت فى أول أمرها تبادلا بالهدايا ، بل إنك لترى فى أيامنا هذه التى تحسب كل شىء بالأرقام أنه قد تكون الهدية (حتى ولو كانت دعوة على طعام) مقدِّمة لصفقة تجارية أو خاتمة لها ؛ ومما يَسَّرَ التبادل الحروبُ والسرقات والجزية والغرامات والتعويض ، فكل هذه وسائل عملت على انتقال السلع من مكان إلى مكان ، إذ لم يكن للإنسان مندوحة عن ذلك ؛ ثم أخذ نظام للتبادل ينشأ رويدا رويدا ، فأقيمت مراكز التجارة والأسواق والمتاجر — أقيمت أول الأمر آناً بعد آن فى غير نظام ، ثم أقيمت على فترات معلومة ، ثم أصبحت دائمة — وفى هذه الأماكن جَعَلَ مَنْ يملك

سلعة فائضة عن حاجته يعرضها مقابل سلعة هو بحاجة إليها(٣١) .

لبثت التجارة أمداً طويلا وهى لا تزيد عن هذا التبادل ، ومضت قرون قبل أن تخترع وسيلة متداولة ذات قيمة فتعمل على سرعة الحركة التجارية ؛ فقد كان الرجل من قبيلة « دياك » يجوز له أن يظل جائلا فى أنحاء السوق ممسكا بيده كرة من شمع العسل ، وباحثاً عن زبون فى مستطاعه أن يقبلها منه مقابل شىء يمكن أن يكون أنفع له(٣٢) ؛ وأول وسائل التبادل كانت سلعاً يطلبها كل إنسان ويقبلها كل بائع ثمناً لبضاعته : كالبلح والملح والجلود والفراء والحلىّ والآلات والأسلحة ؛ وفى مثل هذا التبادل كانت المدْيتان تساويان زوجا من الجوارب ، والثلاثة معاً تساوى بطانية ، والأربعة كلها تساوى بندقية ، والخمسة جميعاً تساوى جواداً ؛ كذلك كان أيّلان صغيران يساويان مُهْراً ، وثمانية أمْهُرٍ تساوى زوجة(٣٣) ؛ إنك لا تكاد تجد شيئاً لم يستعمله الناس استعمالهم للنقود هنا أو هناك ، وفى هذا الزمن أو ذاك : الفول وشصُّ السمك والقواقع واللؤلؤ والخرز وجوز الهند والحبوب والشاى والفلفل ، وأخيراً الأغنام والخنازير والأبقار والعبيد ؛ وكانت الماشية معياراً مناسباً لقياس القيمة ووسيلة للتبادل بين الصائدين والرعاة ، فهى تربح بالتربية وهى سهلة الحمل لأنها تنقل نفسها ؛ فتجد الناس والأشياء حتى عهد هومر يقوّمون بالماشية : فدرع « ديومديز » قيمتها تسعة رءوس من الماشية ، وعبدٌ ماهر يساوى أربعة ؛ واللفظتان اللتان استعملهما الرومان للماشية وللمال متشابهتان ، فللأولى استعملوا لفظةPecus وللثانية Pecunia ؛ وكذلك طبعوا صورة ثور على نقودهم القديمة ؛ بل إن الكلمة التى تستعملها اللغة الإنجليزية لرأس المال وهىCapital ترتد فى تاريخها عن طريق اللغة الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية Capitale ومعناها مِلْك ، وهذه الكلمة بدورها مشتقة من Caput التى تعنى « رأس » والمقصود رأس من الماشية ، فلما أن استنجمت المعادن أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل سائر الأشياء فى استعمالها معياراً للقيمة ، مثال ذلك النحاس والبرونز والحديد ، وأخيراً الذهب

والفضة لأنهما يمثلان قيمة كبيرة فى حيز صغير ووزن قليل ، فأصبحا وسيلة التعامل للإنسان كافة ، وهذا الانتقال من السلع المعيارية فى التبادل إلى العملة المعدنية لم يتم على أيدى البدائيين فى أرجح الظن ، إنما هى خطوة خطاها الناس إبان التاريخ المدون ، فاخترعوا العملة وابتكروا الدين ، وهكذا زادوا ثروة الإنسان ورخاءه حين يسروا تبادل فيض ما ينتجون(٣٤) .

beikal.com

الفصل الثالث

التنظيم الاقتصادى

الشيوعية البدائية — أسباب زوالها —
أصول الملكية الخاصة — الرق — الطبقات

كانت التجارة أعظم مثير للعالم البدائى ، لأنه لم يكن هناك مِلْك ، وبالتالى لم يكن هناك من نظم الحكم إلا قليل ، قبل أن تدخل فى حياة الناس وتجرّ وراءها ذيولها من أموال وأرباح ، ففى المراحل الأولى من التطور الاقتصادى كانت الملكية محصورة — فى الأعم الأغلب — فى حدود الأشياء التى يستخدمها المالك لشخصه ، وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكها ، فغالباً ما دفنت معه فى قبره (وانطبق هذا على الزوجة نفسها) ، وأما الأشياء التى لا تتعلق بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوى ، فلا يكفى أن تقول إن فكرة الملكية ليست فطرية فى الإنسان ، إنما يجب أن تضيف إلى ذلك أنها فى مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك ، كانت من الضعف فى أذهان الناس بحيث تحتاج إلى تقوية مستمرة وتلقين مستمر .

فتكاد تجد الأرض فى كل الشعوب البدائية ملكا للمجتمع بأسره ، فالهنود فى أمريكا الشمالية ، وأهالى بيرو ، وقبائل الهنود التى على تل تشيتاجونج ، وأهل بورنيو ، وسكان الجزر فى البحر الجنوبى ، مثل هؤلاء — فيما نرجح — كانوا يملكون الأرض جماعة ويحرثونها جماعة ويقتسمون الثمار جماعة ، وفى ذلك قال هنود أوماها : « إن الأرض كالماء والهواء لا يمكن أن تباع » ، وكذلك لم يكن بيع الأرض معروفا فى ساموا قبل قدوم الرجل الأبيض ، ولقد وجد الأستاذ رِفرز

شيوعية الأرض لا تزال قائمة فى مالينزيا وپولينزيا ، ويمكنك أن تلحظها اليوم قائمة فى داخل ليبريا (٣٥) .

وأما شيوعية القوت فقد كانت أقل من ذلك انتشاراً ، فمن المألوف عند « الهمج » أن من يملك طعاما يقتسمه مع من لا يملك منه شيئاً ؛ كما كان من المألوف كذلك للمسافرين إذا ما أرادوا طعاما أن يقفوا عند أى دار يشاءون فى طريقهم ، بل كان من المألوف أن تستعين الجماعات التى ينزل بها القحط بجيرانها(٣٦) ، وكان إذا ما جلس إنسان فى الغابة ليأكل وجبته ، توقع منه الناس أن يصيح لمن أراد أن يشاطره الطعام قبل أن يبدأ هو فى تناوله ، وبغير ذلك لا يكون الصواب فى جانبه(٣٧) ؛ فلما قص « تيرنر » على رجل من « ساموا » قصة فقير فى لندن ، سأله « الهمجى » فى دهشة : « وكيف هذا ؟ أليس هناك طعام ؟ أليس له أصدقاء ؟ أليس فى المكان بيت للسكنى ؟ أين إذن نشأ هذا الفقير ؟ أليس لأصدقائه منازل »(٣٨) ؟ والجائع من الهنود ما عليه إلا أن يسأل فيجاب سؤاله بالعطاء ، فمهما يكن مورد الطعام ضئيلا عند المعطى ، فإنه لابد أن يعطى منه هذا السائل ما دام محتاجا ؛ « فيستحيل أن تجد إنسانا يعوزه القوت مادامت الغلال موجودة فى مكان بالمدينة »(٣٩) ؛ وكانت العادة عند الهوتنتوت أن يقتسم من يملك أكثر من سواه هذه الزيادة حتى يتساوى الجميع ؛ وقد لاحظ الرحالة البيض أثناء رحلاتهم فى أفريقيا قبل أن تدخلها المدنية ، لاحظوا أن « الرجل الأسود » إذا ما قدمت له هدية من طعام أو غيره من الأشياء ذوات القيمة ، فإنه يقسمها بين ذويه فورا ؛ وإذا ما أعطى المسافر بدلة لأحد هؤلاء السود ، فسرعان ما يرى الموهوب يلبس من الهبة جزءا كالقبعة مثلا ، ثم يرى صديقا له يلبس السراويل وصديقا آخر يرتدى السترة ، وكذلك الإسكيمو لا يرون للصائد حقا شخصيا فى امتلاك صيده ، بل يلزم توزيعه على أهل القرية جميعاً ، وكانت الآلات والمخزون من الطعام ملكا مشاعا بين الجميع وقد وصف « كابتن كارفر » Captain Carver

هنود أمريكا الشمالية فقال « إنهم لايعرفون من فوارق الملكية شيئا سوى الأدوات المنزلية ... وهم أسخياء بعضهم لبعض غاية السخاء ، وإذا ما فاض عند أحدهم فيض ونقص عند الآخر ما يحتاج إليه ، فلابد أن يسد الأول بفيضه نقص زميله » وكذلك كتب مبشّر دينى يقول : « إن ما يثير الدهشة العميقة أن تراهم يعاملون بعضهم بعضاً برقة ومجاملة قلّ أن تراهما عند أكثر الأمم تحضّراً ؛ وذلك بغير شك يرجع إلى أن لفظتى « ملكى » و « ملكك » اللتين قال عنهما القديس كريسوستم Chrysostom إنهما تخمدان فى قلوبنا شعلة الإحسان وتشعلان نار الجشع ، لايعرفهما هؤلاء الهمج » ويقول شاهد آخر : « لقد رأيتهم يقتسمون الصيد إذا كان لديهم ما يُقْتَسم ، لكنى لا أذكر مثلا واحداً لتنازعهم أو لتوجيههم النقد لطريقة التقسيم كأن يقولوا إنه غير عادل أو غير ذلك من أوجه الاعتراض ؛ إن الواحد منهم ليؤثر أن يرقد على معدته الخاوية ، على أن يُتّهم بأنه أبى أن يعين المحتاج ... إنهم يعدون أنفسهم أبناء أسرة واحدة كبيرة »[٤٠] .

لماذا اختفت الشيوعية البدائية حين نهض الإنسان إلى ما نطلق عليه فى شىء من التحيز اسم المدنية ؟ يعتقد « سمنر » Sumner أنها دلت على أنها ليست بيولوجية فى اتجاهها لأنها عقبة فى سبيل تنازع البقاء ، وأنها لم تحفز الناس بما يكفى لتشجيعهم على الاختراع والنشاط والاقتصاد ، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لمن هو أقل قدرة سوّى بين الكفايات تسوية تعاند النمو وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات[٤١] ، وكتب « لوسكيل » Loskiel عن بعض القبائل الهندية فى الشمال الشرقى يقول : « إنهم من الكسل بحيث لا يزرعون شيئاً بأنفسهم ، بل يعتمدون كل الاعتماد على احتمال أن غيرهم لن يرفض أن يقاسموه فى إنتاجه ؛ ولما كان النشيط لا يتمتع من ثمار الأرض بأكثر مما يتمتع الخامل ، فإن إنتاجهم يقل عاما بعد عام »[٤٢] ؛ ومن رأى دارون أن المساواة التامة بين الفويجيين تقضى على كل أمل فى تحضّرهم[٤٣] أو ربما قال الفويجيون فى ذلك إن المدنية

إذا ما أتيح فإنها ستقضى على المساواة القائمة بينهم ؛ نعم إن الشيوعية طمأنت هؤلاء الذين خلصوا بحياتهم من حوادث الفقر والجهل وما يترتب عليهما من مرض فى المجتمع البدائى ، لكنها لم تنتشلهم من ذلك الفقر انتشالا ، وأما الفردية فقد جاءت بالثراء ، لكنها كذلك جرّت معها القلق والرق ، نعم إن الفردية حركت فى الممتازين من الرجال قواهم الكامنة ، لكنها كذلك نفخت نار التنافس فى الحياة فأشعلتها ، وجعلت الناس يحسون الفقر إحساساً مريراً ، مع أن هذا الفقر لم يكن ليؤذى أحداً حين استوى فيه الجميع(*) .

(*) ربما كان من الأسباب التى تميل بالشيوعية إلى الظهور فى بداية المدنية أنها تزدهر ازدهاراً سريعاً فى أوقات القحط التى يندمج فيها الفرد فى جماعته مدفوعا بعامل الخطر المشترك الذى يتهدد الجميع بالموت جوعا ؛ أما إذا كثرت الخيرات وزال الخطر ، فإن التماسك الاجتماعى بين الأفراد تقل شدته ، بمقدار ما تزداد الفردية ، فكأنما تنتهى الشيوعية حين يبدأ الترف ؛ وإذا ما ازدادت حياة المجتمع تعقداً ، وأخذ تقسيم العمل بين الناس يقسمهم فى أعمال مختلفة وصناعات مختلفة ، يصبح من المتعذر — وتزداد الصعوبة شيئاً فشيئاً — أن تكون كل هاتيك الخدمات التى يقوم بها الأفراد على قدم المساواة من حيث قيمتها للمجتمع ؛ وإذن فلا مناص من أن الفريق الذى مكنته زيادة قدرته عن الآخرين من القيام بالأعمال التى هى أكثر أهمية ، سيأخذ من الثروة التى تنتجها الجماعة أكثر مما يقضى به التعادل فى التقسيم ؛ فكل مدنية نامية إن هى إلا مشهد تتكاثر فيه وجوه التفاوت بين الناس ، إذ تتحد الفوارق الطبيعية الكائنة بين جهود الأفراد مع الفوارق الناشئة فى الفرص السانحة ، فتنتجان فوارق أخرى صناعية فى الثروة والقوة ؛ فإذا لم يكن هنالك قوانين ، أو إذا لم يكن هناك طاغية ، يعمل على كبح هذه الفوارق الصناعية ، فإنها تصل آخر الأمر إلى درجة الانفجار ، حين لا يجد الفقراء فى أيديهم ما يخافون من ضياعه إذا ما أعلنوا العصيان فتهب الثورة بفوضاها التى تسوى بين الناس من جديد فى فقر شامل .

ومن هنا نرى حلم الشيوعية كامناً فى كل مجتمع حديث ، لأنه ذكرى انحدرت للناس من حياة آبائهم الأولين حيث الحياة أبسط من حياتنا وأقرب إلى المساواة ؛ فإذا ما وجد الناس أنفسهم فى تفاوت يفرق بينهم وفى حالة من القلق على أرزاقهم ، بحيث لم يعودوا يحتملون هذا القلق وذلك التفاوت ، فإنهم يرحبون بالعودة إلى الماضى الذى يفيضون عليه من خيالهم مجالا بأن يذكروا ما كان فيه من مساواة وينسوا ما كان يسوه من فقر ؛ لهذا كله ترى الأرض يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام سواء بحكم التشريع أو بمناهضته ، سواء أتم هذا التقسيم الجديد بفضل « الجراشى » فى روما أو اليعقوبيين فى فرنسا أو الشيوعيين فى الروسيا ؛ وكذلك ترى الثروة يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام ، سواء أتم ذلك بمصادرة الأملاك مصادرة بالقوة ، أم بفرض الضرائب على الدخول والتركات بحيث تؤدى إلى المصادرة فى نهاية الأمر ؛ وبعدئذ يبدأ السباق فى سبيل =

تستطيع الشيوعية أن تعيش فى سهولة أكثر فى مجتمعات دائمة الانتقال ، لا يزول عنها الخطر والعوز ؛ فالصائدون والرعاة ليس بهم حاجة إلى مِلْك يحتفظون به ، لكن لما أصبحت الزراعة صورة الحياة المستقرة ، لم يلبث الناس أن تبينوا أن العناية بالأرض تبلغ أقصاها من حيث غزارة الثمر إذا ما عاد جزاء تلك العناية إلى الأسرة التى قامت بها ؛ فنتج عن ذلك بحكم الانتخاب الطبيعى الكائن بين النظم الاجتماعية والأفكار ، كما هو كائن بين الأفراد والجماعات ينتج أن الانتقال من الصيد إلى الزراعة استتبع تحولا من المِلْكية القَبَلِيَّة إلى مِلْكيّة الأسرة ؛ وبذلك أصبحت أكثر الوحدات الاجتماعية اقتصاداً فى نفقات الإنتاج ، هى كذلك وحدة المِلْكية ؛ فلما أن أخذت الأسرة شيئاً فشيئاً تتخذ الصورة الأبوية التى تُركِّز السلطة كلها فى أكبر الذكور سنا ، أخذت المِلْكية كذلك يزداد تركزها شيئاً فشيئاً فى أيدى أفراد ، ثم نشأ التوريث لشخص معين عن شخص معين ؛ ولما كان كثيراً ما يحدث لفرد مغامر أن يغادر مرفأ الأسرة الآمن ، ليضرب بمغامراته خارج الحدود التى وقف عندها ذووه ، ثم ينتهى به العمل المتصل الشاق أن يستولى على قطعة أرض من الغابة أو الحَرْج أو المستنقع ؛ فإنه يحرص عليها حرصاً شديداً لا يسمح لغيره بانتزاعها لأنها مِلْكه الخاص ، حتى لتضطر الجماعة فى النهاية أن تعترف بحقه فيها ، وبهذا نشأ ضرب آخر من ضروب المِلْكية الفردية[٤٣ ا] ومثل هذا الاستيلاء على الأراضى أخذ يزداد اتساعاً حين ازداد السكان واستُنفِدَت قوة الأرض القديمة ، حتى وصل الأمر فى المجتمعات

= الثروة والمتاع والقوة من جديد ، ويتشكل الناس بحكم قدراتهم المختلفة فى هيئة الهرم مرة أخرى فهما يكن من أمر القوانين الموضوعة ، فلا بد الأقدر من الناس أن يظفروا بالتربة الأخصب بوجه من الوجوه ، وأن يحتلوا المكانة الأعلى ويأخذوا نصيب الأسد ؛ وسرعان ما تبيح لهم قوتهم أن يسيطروا على الدولة وأن يميدوا سن القوانين أو يميدوا شرحها بحيث تتفق وهواهم ، فيأتى يوم يشتد فيه التفاوت بين الناس كما كان قبل ؛ فالتاريخ الاقتصادى كله — فى هذا الصدد — إن هو إلا نبضات قلب الكائن الاجتماعى ؛ هو انقباض لهذا القلب الكبير ثم انبساط ، يتمثلان فى تركز الثروة تركزا طبيعيا ثم انفجار الثروة انفجارا طبيعيا كذلك .

الأكثر تعقداً من سواها ، إلى أن باتت المِلْكيـــة الفردية هى النظام السائد ، ثم جاء اختراع المال فساعد هذه العوامل بتيسيره لجمع الثروة ونقلها وتحويلها ؛ واتخذتْ حقوق القبيلة القديمه وتقاليدها صورة المِلْكية بمعناها الدقيق ، وأما المالك عندئذ فهو أهل القرية جماعةً أو الملك ، ثم خضعت المِلْكية لإعادة التوزيع حيناً بعد حين ؛ ومضى هذا العصر الذى جعل أمر المِلْكية يتذبذب فيه على هذا النحو من طرف إلى طرف ، بين النظام القديم والنظام الجديد ، وبعدئذ استقرت المِلْكية الفردية الخاصة استقراراً لا شُبْهة فيه ، وأصبحت هى النظام الاقتصادى الأساسىّ الذى أخذت به المجتمعات فى العصور التى دوَّن أخبارَها التاريخ .

لكن بينا كانت الزراعة تُنْشئ المدنيَّة إنشاءً ، فإنها إلى جانب انتهائها إلى نظام المِلْكية ، انتهت كذلك إلى نظام الرق الذى لم يكن معروفاً فى الجماعات التى كانت تقيم حياتها على الصيد الخالص . لأن زوجة الصائد وأبناءه كانوا يقومون بالأعمال الدَّنيَّة ، وكان فيهم الكفاية لذلك ، وأما الرجال فقد كانت تتعاقب فى حياتهم مرحلة تضطرب بنشاط الصيد أو القتال يتلوها مرحلة من فتور الاسترخاء والدَّعة بعد الإجهاد والعناء ؛ ولعل ما تنطبع به الشعوب البدائية من كسل قد بدأ — فيما نظن — من هذه العادة ، عادة الاستجمام البطىء بعد عناء القتال والصيد ؛ ولو أنها لم تكن عندئذ كسلا بمقدار ما كانت راحة واستجماماً ؛ فلكى تحوَّل هذا النشاط المتقطع إلى عمل مطّرد ، لا بد لك من شيئين : العناية بالأرض عناية تتكرر كل يوم ، وتنظيم العمل .

وأما تنظيم العمل فيظل مُنْحَلَّ العُرى لَدُنِّىَّ النشاط ما دام الناس يعملون لأنفسهم ؛ لكنهم إذا كانوا يعملون لغيرهم فإن تنظيم العمل لا بد أن يعتمد فى النهاية على القوة والإرغام ؛ وذلك أن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الناس انتهيا إلى استخدام الضعفاء اجتماعيا بواسطة الأقوياء اجتماعيا ، ولم يتنبَّه الظافر فى القتال قبل ذلك إلى أن الأسير الذى ينفعه هو الأسير الحىّ ، وبذلك قَلَّت

الحجازر وقلّ أكل الناس بعضهم لحوم بعض ، كلما زاد نظام الرق اتساعاً(٤٤) وإذن فقد تقدم الإنسان من حيث الأخلاق تقدماً عظيما حين أقلع عن قتل زميله الإنسان أو أكله ، واكتفى من أعدائه باسترقاقهم ؛ وإنك لترى تطوراً كهذا يتمّ اليوم على نطاق واسع ، إذا أقلعت الأمم الظافرة عن الفتك بالعدو المغلوب ، واكتفت باسترقاقه عن طريق التعويض الذى تقتضيه إياه ؛ ولما استقر نظام الرق على أسسه وبرهن على نفعه ، أخذ يزداد نطاقه بأن أضيف إلى الرقيق طوائف أخرى غير الأسرى ، فأضيف إليهم المَدِينون الذين لا يوَفّون الدَّيْن ، والمجرمون الذين يعاودون الإجرام ، هذا إلى إغارات تُشنّ عمداً لاجتلاب الرقيق ؛ وهكذا كانت الحرب بادئ الأمر عاملا على نشأة الرق ، ثم أصبح الرق عاملا على شنّ الحروب .

ولعل نظام الرق حين امتدّت به القرون قد أكسب الجنس البشرى تقاليده وعاداته من حيث العمل ، فلن تجد بيننا أحداً يقدم على عمل شاق عسير إذا كان فى مقدوره أن يتخلص منه بغير أن يتعرض لشىء من العقاب البدنى أو الاقتصادى ، وإذن فقد بات الرق جزءاً من النظام الذى استعد به الإنسان للقيام بالصناعة ، هذا فضلا عن أنه عمل على تقدم المدنيّة بطريق غير مباشر ، بأن زاد من الثروة فخلق الفراغ لفئة قليلة من الناس ، ولما مضت قرون على هذا النظام ، جعل الناسُ ينظرون إليه كأنه نظام فطرىّ لا غنى عنه ، بهذا قال أرسطو وكذلك بارك القديس بولس هذا النظام الاجتماعى الذى لابد أن يكون قد بدا لعينيه فى عصره نظاماً قضى به الله .

هكذا أخذت الزراعة وأخذ نظام الرق ، كما أخذ تقسيم العمل وما يقتضيه من اختلاف بين الناس ، أخذ كل هذا يستبدل شيئاً فشيئاً بالمساواة التى كانت قائمة فى الجماعة الطبيعية تفاوتاً وانقساماً إلى طبقات « ففى الجماعة البدائية لا ترى — على وجه العموم — فارقاً بين حرّ وعبد ، ولا تجد فيها رقا ولا طبقات ، ثم

لاتدرك من الفوارق بين الرئيس وتابعيه إلا قدراً ضئيلا »[٤٥] . وبالتدريج ازدادت الآلات والصناعات تعقداً ، فعمل ذلك على إخضاع الضعيف العاجز إلى مشيئة القوىّ الماهر ، وكان كلما ظهر اختراع جديد ، أصبح سلاحاً جديداً فى أيدى الأقوياء ، فزاد من سلطانهم على الضعفاء واستغلالهم لهم(*) ثم عمل نظام التوريث على اتساع الهوة بأن أضاف إلى الامتياز فى الفُرَص السانحة امتيازاً فى الأملاك ، فقَسَمَت المجتمعات التى كانت يوما متجانسة إلى عدد لا يحصيه النظر من طبقات وأوساط ؛ وأحَسّ الأغنياء والفقراء بغناهم أو فقرهم إحساساً يؤدى إلى التشاحن ، وأخذت حرب الطبقات تسرى خلال عصور التاريخ كأنها خيط أحمر ، فاقتضى هذا النزاع بين الطبقات قيام الدولة التى لم يَعُد عن قيامها محيص لتنظيم تلك الطبقات ولحماية الأملاك ولشنّ الحروب ولتنظيم السلام .

(*) وكذلك فى عصرنا أدى سيل الاختراعات الذى نسميه بالثورة الصناعية إلى توسيع التفاوت الطبيعي بين الناس .